



الباب الثاني

- الفصل الأول
- << تعريف الخلق
- << تعريف حسن الخلق
- << فضل ومكانة حسن الأخلاق في القرآن
والسنة

- الفصل الثاني
- << ماهية الأخلاق
- << هل الأخلاق غاية .. أم وسيلة ؟
- أم الاثنين معاً؟
- << متى تكون الأخلاق فضيلة؟!>>

ما هو الخلق..؟

الخلق هو السجية البخل وهوتي نشأ عليها الإنسان أو اكتسبها من تربيته وبيئته ونشأته ، والخلق إما يوصف بالحسن أو السوء من خلال التعاملات والمواقف والظروف .
ولقد ذكرت تعاريف كثيرة للخلق ولعل من أفضلها :

تعريف الجرجاني :

الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة ، سميت الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة ، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً . وإنما قلنا : إنه هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على الدور بحالة عارضة ، لا يقال : خلقه السخاء ، ما لم يثبت ذلك في نفسه ، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم .

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقده مال، أو لموانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء.

لقد علق الجرجاني تعريفه للخلق على النية والصفات المستقرة

والمغروسة في نفس الإنسان.

تعريف مصطفى لطفى المنفلوطي :

الخلق هو شعور المرء بأنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن يفعل ، لذلك لا أسمى الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية ، ولا الرحيم رحيماً حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه ، ولا العادل عادلاً حتى يقضي على نفسه قضاؤه على غيره ، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في أفعاله صدقه في أقواله .

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار ، أو خوفه من القانون ، وإنما ينفعه أن يكون ضميره قائده الذي يهتدي به ، ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته .

الخلق هو الدمعة التي تترقرق في عيون الرحيم كلما وقعت عينه على منظر من مناظر البؤس. الخلق .. هو الصرخة التي يصرخها الشجاع في وجه من يجترئ على إهانة وطنه ، أو العبث بكرامة قومه . وجملة القول : الخلق هو أداء الواجب لذاته ، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج ، فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحيي ضمائرهم ، وليثبت في نفوسهم الشعور بالرغبة في الفضيلة والنفور من الرذيلة. ولعل المنفلوطي اعتمد في تعريفه هذا على نقاء الفطرة ، وصفاء السريرة .

وكلا التعريفين في نظري يكملان بعضهما البعض حيث الخلق الحسن هو الضمير الحي يصاحبه النية الطيبة والفطرة السليمة التي تجعله جزء لا يتجزأ من الإنسان ، وعلى العكس من ذلك يكون الخلق السيئ.

ما هو حسن الخلق؟

إن حسن الخلق هو الجميل من الأقوال والأفعال ، ومعاملة الناس بما تحب أن يعاملوك به ، وهو أيضاً مبادئ ثابتة لا يميل بها هوى ، أو تنجح بها مصلحة ، وحسن الخلق عادةً ما ينطلي على صفاء ونقاءٍ في القلب ينبع منه سلوكيات وطبائع رقيقة مع الناس ومراعاة لمشاعرهم ، وتطييباً لنفوسهم .

سأل رجل النبي ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى: {خذ العفو، وأمر بالعرفن، وأعرض عن الجاهلين}. الأعراف ثم قال : « هو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » .ابن مردويه عن أنس وجابر وقال تعالى: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}.الفرقان قال النبي ﷺ : « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصنع عمن شتمك » .أحمد

وعن النواس ابن سمعان قال : « سألت النبي ﷺ عن البر والإثم؟ فقال : « البر حسن الخلق .والإثم ما حاك في صدرك ، وكهرت أن يطلع عليه الناس » مسلم.

في هذا الحديث يتضح أن حسن الخلق هو الدين كله وحقائق الإيمان كلها، ولذلك فقد قابله بالإثم وفي حديثٍ آخر :« البر :ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في الصدر » وقد فسر النبي ﷺ حسن الخلق بأنه البر ، فدل ذلك

على أن حسن الخلق هو طمأنينة النفس .
والأخلاق إما طريق إلى الجنة أو طريق إل النار

فقد روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: (حسن الخلق زمامٌ من رحمة الله في أنفه صاحبه ، والزمام بيد الملك يجره إلى الخير ، والخير يجره إلى الجنة، وسوء الخلق زمام من مذابح في أنفه صاحبه والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجره إلى النار) . البيهقي

أقوال في حسن الخلق :

- عن ابن المبارك قال: هو بسط الوجه وبذل المعروف وكف الأذى.
- وقال الإمام احمد: حسن الخلق أن لا تغضب، ولا تحقد، وقال أيضاً حسن الخلق أن تحتمل ما يكون من الناس.
- وقال بعض أهل علم الكتاب والسنة كظم الغيظ لله وإظهار الطلاقة والبشر إلا للمبتدع والفاجر ، والعفو عن الذالين إلا تأديباً، وإقامة الحد، وكف الأذى عن كل مسلم ومعاهد إلا تغيير منكر وأخذاً بمظلمة لمظلوم من غير تعدٍ.
- وقيل : ورد على أنو شروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي : تكلم ، فقال : خير الناس من ألقى سخياً ، وعند الغضب وقوراً ، وفي القول متأنياً، وفي الرفعة متواضعاً ، وعلى كل ذي رحم مشفقاً .

مكانة حسن الخلق في الكتاب والسنة :

لو أننا تأملنا الكتاب والسنة، لوجدنا زخماً هائلاً من الإشارات التي تحض على أهمية وضرورة التحلي بالفضائل والأخلاق الحميدة، والمكانة الكبيرة لحسن الأخلاق في الإسلام.

• فحسن الخلق أمر رباني، وقد عدَّ الله مخالفة الناس بخلقٍ حسن من خصال التقوى، ودليل على اكتمال الإيمان في قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ مَّرْضُوعَةٍ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}. آل عمران

وعن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ ابن جبل عن النبي ﷺ قال: « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلقٍ حسن ». صحيح الترمذي
وعندما سئل النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم: أي المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال: « أحسنهم خلقاً ». الطبراني

• ومن أراد أن يحظى بحب الله تعالى وصحبة النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم عليه وسلم والقرب منه في الجنة فعليه بحسن الخلق فعن أسامة بن شريك قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ كأنها على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناسٌ فقالوا: من أحب عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: « أحسنهم خلقاً ». الطبراني
وقال ﷺ: « إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً. وإن من أبغضكم إليّ ، وأبعدكم مني يوم

القيامة : الثرثارون و المتشدقون المتفیهقون . قالوا: يا رسول الله ﷺ. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون . فما المتفیهقون ؟ قال: « المتكبرون» . صحيح رواه الترمذي والثرثار: هو كثير الكلام بلا فائدة، والمتشدق: المتكلم بملاء فيه تفاصحاً وتعاضماً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره.

• ومن ابتغي الجنة والمنازل العليا وأعلى الدرجات في الجنة وإن قل عمله فليلتزم حسن الخلق

فعن أبي هريرة : « أن النبي ﷺ سئل عن أكثر ما سيدخل الناس الجنة ؟ فقال : **تقوى الله وحسن الخلق**، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال ﷺ: **الغم والفرج** .» الترمذي وقال : « **أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق**». أبو داود والترمذي

وعن أنس قال ﷺ : « **إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وأشرف المنازل ، وإنه لضعيف العباداة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم**». الطبراني

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليذكر بحسن خلقه درجة الصائم القائم**». أبو داود وفي رواية: «**إن المؤمن ليذكر بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار**». أبو داود

وعن ابن عمر، سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن المسلم المسدد ليذكر درجة الصوام القوام بآيات الله ، بحسن خلقه، وكرم طبيعته**». أحمد

وقال النبي ﷺ: «أنا زعيمٌ بببيتِ في رِبطِ الجنة لمن ترك المرء وإن كان مَدْحاً، وببيتِ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيتِ في أعلى الجنة لمن حسن خلقه». الترمذي

فقد أخبر النبي ﷺ الكريم أن أعلى منازل الجنة تكون لذا الخلق الحسن، على أننا عندما نتأمل الحديث الشريف نجد أن ترك المرء هو من حسن الخلق، وترك الكذب هو من حسن الخلق أيضاً، فالنبي ﷺ خصص ثم عمم، أي أن من استطاع أن يرتقي بأخلاقه لأعلى الدرجات، فقد استحق أن يرتقي في الجنة لأعلى المنازل أيضاً.

ومن أراد فن التعامل مع الناس وكسب ثقتهم وودهم والنجاح وسعة الرزق فعليه بحسن الخلق، فحسن او نضع، جب التحابب والتآلف بين الناس ويخلق مجتمعاً مترابطاً قوياً، وسوء الخلق يورث التباعد والتباغض والتحاسد الذي يزعزع المجتمع ويعرضه للانهايار.

فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق». أخرجه أبي يعلى وصححه الحاكم

وعن عائشة قالت: إن حسن الخلق وحسن الجوار وصلة الرحم يعمرن الديار، ويزدن في الأعمار، وإن كان القوم فجارا. وقال بعض الحكماء: من ساء خلقه ضاق رزقه

الفصل الثاني

ماهية الأخلاق

لقد خلقنا الله في هذا الكون لنعبده ونعمر أرضه،
وعمارة الأرض معناها أن نعمل وننتج ونزرع ونصنع ، ونبدع ونقدم
الاختراعات ، ونقيم الحضارات ... إلى غير ذلك.
{وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل
فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس
لك قال إني أعلم ما لا تعلمون}.البقرة ٣٠

وإن كانت عمارة الأرض هي غاية لخلق الإنسان، فإنه لتحقيق
أي غاية أو هدف لابد له من أسس وإطارات ومبادئ يقوم عليها ولا
يقوم إلا بها، ولذا فإن الأخلاق هي المبادئ والأسس التي وضعها الله
تعالى لعباده لتحقيق هذا الهدف المنشود.
تماماً كرجل أسس شركة ووضع لها الأهداف ، ثم لم يضع الأطر
والقوانين التي يسير عليها الموظفين في هذه الشركة ، فأنى يتحقق
الهدف الذي أنشئت من أجله هذه الشركة ؟.

ولذلك فإن إرساء مجتمعاً أخلاقياً إنما يهيئ المجال للعلم والتعلم،
والعمل والإنتاج ، والخلق والإبداع.
فالله يريد للإنسان الخير والسعادة والرخاء، ويريد أن يُقرَّ به أيضاً
الخير والسعادة والرخاء في الكون كله.

هل الأخلاق غاية ... أم وسيلة ... أم الاثنين معاً؟

كيف تكون الأخلاق غاية؟

عندما ألقى جعفر بن أبي طالب خطبته على النجاشي قال فيها : أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهليته نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام- فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.

إن اكتساب الأخلاق أمر بالغ الأهمية ويحتاج من الدعم والتركيز والاهتمام أكثر بكثير مما نوليه إياه الآن، بدايةً بالدور الكبير للأسرة حيث تشكل ٩٠% من قيم الطفل في فترة السبع سنوات الأولى من عمره، ثم مروراً بدور لا يقل أهمية عن دور الأسرة وهو المدرسة حيث يصبح المعلم المثل الأعلى للتلميذ، ومن ثم تتداخل أدوار أخرى في التأثير على قيم الطفل بعد ذلك من أصدقاء وزملاء وإعلام ثم

تختلف المسؤوليات وتتبدل الأدوار ليصبح هذا الطفل بعد ذلك زوج وأب وصاحب مهنة وكل هذه عوامل تغير من مفاهيمه وسلوكياته ، فالإنسان بذلك في تشكيل مستمر طيلة حياته لقيمه ومعتقداته ، وهو كذلك يتأثر ويؤثر بصورة دائمة على مجتمعه وبيئته .

ومن هنا يحدث التخبط والارتباك في المجتمع الذي يعاني من اختلاف القيم والمبادئ تبعاً لنشأة كل فرد وتربيته التي تكون في الغالب بلا أساس، ومفاهيم الفضيلة فيه تختلف من شخص إلى آخر، ومبادئ مثل الصدق والأمانة و الحياء واحترام الآخر... إلخ لها معايير تختلف من شخص لآخر حسب تأثير البيئة فيه ، ومن هنا كانت أهمية الاتفاق على مبادئ وقيم وأخلاقيات واحدة يسير عليها أفراد المجتمع كله ، يترتب النشأ عليها ، ويعاقب من يخالفها .

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام وتربيته للأخلاق في النفوس غاية ، واهتمامه بكل تفصيله من تفاصيل الحياة حيث لكل ظرف أدب وخلق واجب لابد أن يتبع ، ولذلك وضع الأخلاق والقيم محورا يدور حوله الدين ، ومنهجاً يسير عليه المسلمين، ولا يختلف عليه ذوو العقول السليمة ، هذا المنهج الواحد والقيم والمبادئ الواحدة التي إذا تمسك بها المجتمع كله أصبح مجتمعاً متماسكاً مترابطاً قوياً مندفعاً بقوة نحو التقدم والارتقاء .

ولذلك شرع الله تعالى العبادات الشعائرية التي تحمل في طياتها تدريباً منظماً على الأخلاق ، بل والأكثر من ذلك أنه ربط مبدأ قبول هذه العبادات أو إحباطها بمدى الالتزام بهذه الأخلاقيات والفضائل من عدمه .

الأدلة على أن الأخلاق في حد ذاتها غاية:

أولاً: شعائر الإسلام تدريب على الأخلاق

إن العبادات التي شرعها الإسلام، إنما هي في الحقيقة تمارين متكررة لتعويد المرء على الحياة بأخلاقٍ كريمة، والارتقاء بها.

فالصلاة:

هي الخشوع والخضوع والتواضع بين يدي الله، وكأننا نجدد العهد مع الله في كل مرة فكيف يتسنى لمن يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم بأن يظلم أو يسيء لأحد أو يشتم أو يكذب أو يعتدي.

ولذا فقد قال الله تعالى: {اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون} سورة العنكبوت ٤٥

والصيام :

إن التدريب على حرمان ومنع النفس من حاجات أساسية ومشروعة لمدة شهر كامل كل عام يعزز قدرة الإنسان على التحكم في نفسه في سلوكيات غير مشروعة أو مقبولة، وخاصةً في أنه لم يشرع على أنه حرمان للطعام والشراب فقط، ولكنه حظر لأي إيذاء أو تعدي بالقول أو الفعل وقول الله تعالى يبين الحكمة من وراء الصيام: {كتب عليكم الصوم كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم

تتقون}.البقرة ١٨٣

وقال النبي ﷺ : (ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابك أحد ، أو جهل عليك ، فقل: إني صائم)ابن خزيمة

عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » رواه البخاري .

والصيام أيضاً يعلم الصبر والجلد والحلم والأناة، والإحساس بالفقراء والمساكين، والبذل والعطاء، وصيانة اللسان.

والزكاة :

أن تقتطع شيء من أموالك لمساعدة الفقراء والمساكين هو تدريب لتزكية النفس وتخليصها من شحها وفي نفس الوقت فهي تزرع التآلف والتعاطف بين المسلمين، ووسيلة للتراحم والشفقة وحب البذل والعطاء.

وقد بين الله الغاية منها بقوله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}. التوبة
ومن أجل ذلك وسع النبي ﷺ من نطاق الصدقة وأعطاهها مفهوماً أوسع وأعمق فقال ﷺ: (وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة) البخاري.

والحج :

ليست مجرد شعائر تعبدية غيبية ، ولكن المغزى منها التدريب على الصبر والحلم وصون اللسان، فقد قال تعالى: { الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب}.البقرة

وتأمل قول الله تعالى :

{ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ } المعارج (١٩،٣٥)

وفي هذه الآيات يبين الله أن النفس البشرية جبلت على الخوف والضعف أمام الأهواء والشهوات فإذا ترك نفسه لخوفها وأهوائها لهلك ولكن من ينجو هو من يقوم نفسه على الدوام عن طريق الالتزام بالعبادات التي مغزاها تدريب النفس على كبح أهوائها وإفراز نتائجها في المعاملات مع الناس، ولذا فمن يستحق التنعم في جنات الله تعالى ليس فقط من يقومون بالعبادات الظاهرية والشعائرية بل هم من يقيمون العبادات ويوفون مع الله العهد في

المعاملات بالتزام أخلاق المؤمنين حقاً من أمانة وصيانة العهد وقبول الحق والبذل والعطاء .

« إن الخُلُق لا يتكون في النفس فجأة ، ولا يولد قوياً ناضجاً بل يتكون على مهل وينضج على مراحل . وهذا سر ارتباط فمائه بأعمال متكررة، وخلل لها صفة الدوام كالصلاة والزكاة، والتصديق بيوم الجزاء، والإشفاق من عقاب الله إلخ وإذا كانت الطباع الرديئة دائمة الإلحاح على صاحبها تحاول العوج بسلوكه بين الحين والحين، فلن يكفكف شرها علاج مؤقت. وإنما يسكن ثورانها عامل لا يقل قوة عنها يعيد التوازن على عجل إذا اختل» .

الإمام الغزالي

في كتابه (خلق المسلم) في شرح هذه الآية

ثانياً: العبادات الشعائرية تفسد بسوء الأخلاق

الكثير من الناس يعتقد أن الإيمان هو إقامة الشعائر التعبدية ، وأن كثرة العبادات إما هو ميزان التفاضل بين الناس، فهذا إنسان صالح إنه لا يتزك فرض في المسجد ، وهذه إنسانة صالحة فهي تصوم أغلب أيام الأسبوع ، وهذا يختم القرآن كل ثلاثة أيام ، ولكن هذا الاعتقاد خاطئ، حيث أنه إذا لم تصاحب هذه العبادات معاملات وأخلاقيات كريمة مع البشر فلن تشفع له عند رب البشر ، فغاية العبادات وجوهرها إنما هو تهذيب الأخلاق، فإن لم تتحقق الغاية من هذه العبادات فإنها ستحبط وإن كثرت والدليل على ذلك من القرآن والسنة :

فالشهادتان :

يقول ﷺ : « من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها؟ قال: أن تحبزه عن محارم الله.».

والصلاة :

والتي هي عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، وبالرغم من ذلك إلا أنها عرضة لأن تحبط بسبب سوء الأخلاق .

ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى :

« إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي ، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب » البزار

وعن النبي ﷺ أنه قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا ». الجامع الصغير

وعن أبي هريرة :

يا رسول الله ﷺ : إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقته، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، قال : «هي في النار» ، قال : يا رسول الله ﷺ ، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقته وصلاتها ، وإنها تصدق بالأثوار من الأقط ، ولا تؤذي جيرانها بلسانها ، قال : «هي في الجنة» . أحمد

الصيام :

عن أبي هريرة قال النبي ﷺ :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »

[البخاري ، الترمذي أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

الزكاة :

قال تعالى : { قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين } . سورة التوبة 03

الحج :

يروى عن أبي هريرة قال النبي ﷺ :

(إذا خرج الرجل حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرزد فنادى لبيك اللهم لبيك ، ناداه مناد من السماء لبيك وسعديك زادك

حلال وراحتك حلال وحبك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة
الخبیثة فوضع رجله في الغرز فنادى ليبيك، ناداه مناد من
السماء لا ليبيك ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحبك
غير مبرور». الطبراني

ويقول النبي ﷺ تقريراً وتأكيذاً لإحباط الأخلاق السيئة للعبادات :
« ثلاثٌ من كن فيه فهو منافق . وإن صام و صلى و حج و اعتمر
، وقال إني مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا
أوتمن خان » . مسلم

وعن أبي هريرة قال صلي الله عليه وسلم : « هل تدرون من
المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع
، قال : إنَّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصيام و صلاة
 و زكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، و قذف هذا ، و آكل مال هذا ،
 فيقعد فيقتص هذا من حسناته ، و هذا من حسناته ، فإن فنيك
 حسناته قبل أن يقضي ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم ،
 فطرحك عليه ، ثم طرح في النار » . مسلم و احمد و الترمذي

وفي حديث آخر ، عن ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال :
« لأعلمن أقبوا ما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال
 تهامة بيضا فيجعلها الله هباء منثورا » ، قال ثوبان : يا رسول الله ،
 صفهم لنا ، جلهم لنا ، أن لا نكون منهم ، ونحن لا نعلم ، قال :
« أما إنهم إخوانكم ، و من جدتكم ، و يأخذون من الليل كما

تَأْخِذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا .» .ابن ماجه
 إذ أن عبادتهم لم تنههم عن محارم الله فأحبطت وسقطت.

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل**» .البيهقي

فما قيمة دين بلا خلق، وما معنى إيمان بلا فضيلة، وما معنى أن شخصاً يصلي ويصوم ويحافظ على عباداته، وفي نفس الوقت فهو سيء إلى جيرانه، و يكذب و ينافق ، أو يشهد الزور، أو يتناول على الناس بألفاظٍ أو أفعال غير لائقة.

«وخلاصة القول في هذا الأمر أن الإسلام جاء ليخلص الفطرة من شوائبها، ويهذب النفس من نزواتها، وإثما العبادات التي أمر بها الإسلام هي تدعيمٌ للفطرة ، وترويضٌ للهوى..ولن تؤدي العبادات رسالتها، وتبلغ هدفها وقامها إلا إذا كانت كلها روافد لتكوين الأخلاق العالية.»

الشيخ محمد الغزالي

ثالثاً : أعلى الناس أخلاقاً هو أعلى الناس في منازل الجنة

وهذا دليل آخر على أن الأخلاق الفاضلة غاية ،فاعمل على نفسك حتى تصل إلى أعلى الدرجات .

فعن أنس قال صلي الله عليه وسلم : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وأشرف المنازل ، وإنه لضعيف العباد . وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم » .الطبراني

رابعاً: غاية رسالة النبي ﷺ

عندما قال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .أحمد

كل ذلك يدعوك للقول بأن الكون كله يدعوك لحسن الأخلاق، وأن السمو بالأخلاق هو الغاية من الخلق

فالفطرة..... تدعوك لمكارم الأخلاق .

والطبيعة تدعوك لمكارم الأخلاق.

والأنبياء يدعونك لمكارم الأخلاق .

العبادات.....تدريبات على مكارم الأخلاق

الابتلاءات عقوبات على التقصير في خلق من الأخلاق.

السعادة والنجاح الجزاء في الدنيا على حسن الأخلاق.

أعلى درجات الجنان..... هو الجزاء في الآخرة على حسن الأخلاق.

فعندما تسمو بأخلاقك، فإنك تصبح الأفضل بين الخلق، وعندما

تصبح الأفضل بين الخلق فعندها تستحق المكان الأفضل في الجنة ،

فالجنة مكانٌ يستحق أن تتزين له بأخلاقك .

كيف تكون الأخلاق وسيلة ؟

وكما أن الأخلاق غاية في حد ذاتها فهي أيضاً وسيلة لتحقيق:

• احترام وتقدير الذات :

إن تقدير الذات من الحاجات العليا للإنسان، فلو صغر الإنسان أمام نفسه، لهانت عليه نفسه ورضي بكل نقيصة، وخاض بكل معصية دون أن يهتم بالنتائج، فففسه أمامه حقيرة لا تستحق غير ذلك، فيظل يهوى بها دركاتٍ ودركات، وكل إنسان ذو مبادئ وأخلاق لا يرضى عن ذلك بديلاً لأنه يرى نفسه عزيزة لا يرضى أن يذلها بمعصية أو خسيصة، فهو يسمو بها لأعلى الدرجات، ولقد كرّمنا الله ورفعنا على جميع مخلوقاته، حتى الملائكة أظهر الخلق هم مجبولون على الطاعة ليس لهم خيار إلا الطاعة والعبادة، أما نحن بنو آدم خلقنا الله وكرّمنا وأسجد الملائكة لأبونا آدم، ونفخ فيه من روحه، وأعطانا حرية الاختيار، فلماذا نلقي كل هذا التكريم وراء ظهورنا، ونهين أنفسنا بذل المعاصي، وفساد الأخلاق.

• احترام وتقدير الناس :

إنك لا تستطيع أن ترى إنساناً ذا خلق دون أن تحترمه وتعجب بأخلاقه ويترك في نفسك شيئاً، فها هو سيد الخلق عليه أفضل الصلوات والتسليم لم يستطع أحد رآه أو سمعه أو تعامل معه أن يمنع نفسه عن حبه واحترامه والإعجاب به حتى من غير المسلمين، وقد وصفه الله تعالى في كتابه { وإنك لعلى خلقٍ عظيمٍ }. القلم ٤

فأسهل طريق لاجتذاب قلوب الناس إليك واحترامهم وثقتهم بك هو حسن الخلق.

حسن الخلق يستر كثيراً من السيئات كما أن سوء الخلق يغطي كثيراً من الحسنات

• النجاح في الدنيا :

فالدين قد رسم لنا أساساً أخلاقيات لنسير عليها لو أننا التزمنا بها فسنفوز بالدنيا والآخرة ، ولأن الدين هو عبارة عن خطوات منطقية فإن هناك أناساً غير متدينين ، أو حتى غير مسلمين وناجحين في الحياة بسبب أخلاقهم ، فقد توصلوا بعقولهم وذكائهم إلى أن الأخلاق الحسنة تؤدي إلى النجاح والسعادة وحب الآخرين، فلما ساروا على هذا الدرب تميزوا وارتقوا في أعلى المراتب، فما بالناس نحن المسلمين ونحن نملك العقيدة والمنهج الأخلاقي الكامل الذي رسمه لنا الله تعالى .

• الفلاح في الآخرة :

وبالرغم من أن النتائج متساوية في الدنيا لمن سلك مسلك الأخلاق سواءً كان متديناً أو غير متديناً، أو مسلماً أو غير مسلماً، ولكن الفلاح في الآخرة لا يكون إلا للمؤمن الذي نيته لله وحده، لا يبتغي بها إلا وجهه، وليست لمصلحته الشخصية أو الدنيوية، فهو بذلك قد ربح الدنيا والآخرة.

• الإصلاح والتقدم :

فإن أردنا أن تنهض أمتنا وتسبق الأمم الأخرى فعلينا أن نبدأ بالأخلاق ، فكلُّ يبدأ بنفسه ، ثم بما استرعاهم الله عليه ، ثم بمحيطه ، فلقد ساد الصحابة والمسلمون الأوائل بأخلاقهم العالم بعد أن كانوا مجتمع صغير جاهل يأكل طبعه بعضاً ، فظهروا على أُمم الأرض قاطبةً ، وما ذلنا وتراجعنا إلا بعدما تخلينا عن الأخلاق وتطهير النفس ، وذلنا وتبعثرنا في متاهات ليس لها بداية ولا نهاية .

متى تكون الأخلاق فضيلة؟!

كلنا يعرف أن التحلى بالأخلاق الصالحة فضيلة فهل هذا الكلام صحيح على مطلقه أم للفضيلة مقياس آخر؟

كنت أتعجب عندما أسمع حكايات عن زهاداً ورهباناً ، منعوا أنفسهم من كل الشهوات ، وعاشوا فقط ليتعبدوا لله في الصوامع والجبال ، وعندما تعرضوا لعرض من أعراض الدنيا ، أو خالطوا الناس ذلُّوا ووقعوا أشد ما يكون الذلل .

فكنت أتعجب أليسوا هؤلاء أفضل من ملكوا أنفسهم وتحكموا بأهوائهم؟ أليس هؤلاء أقدر الناس على ضبط أخلاقهم ، فكيف بهم الذلل بكل هذه السهولة فيقعون في أسوأ ما يمكن أن يقع فيه بشر. وتأملت حكمة النهي في ديننا العظيم عن الرهبانية والعزلة، فقد قال ﷺ: « لا رهبانية في الإسلام ».

وقد تعامل النبي ﷺ نفسه مع كل صنوف البشر ، وكان مختلطاً بالناس في مختلف المناسبات، فلا تستطيع أن تجد معاملة إنسانية إلا وتجد صدقاً للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف كيف كان يتعامل فيه ، سواءً مع زوجة أو ابن أو ابنة أو طفل أو صاحب أو قريب أو مسلم أو غير مسلم أو فقير أو غني أو ذو مكانة أو حقير أو عدو .أو كبير أو صغير... وهنا كانت تظهر عظمته وروعة أخلاقه. حتى أن الله وصفه في كتابه العزيز فقال: { إنك لعلی خلق عظیم }.

لقد استحق النبي ﷺ هذا الوصف لأنه اعتلى كل الفضائل ، وما كان ليحظى بهذا الشرف إلا من خلال بروز أخلاقه العالية من خلال تعامله مع الناس ، ومواجهته لمختلف المواقف ، فلم يكن يعيش منعزلاً في صومعة ، أو فوق جبل .

فعرفت آنذاك أن الفضيلة لا يمكن أن يتصف بها إنسان إلا عندما يتعامل مع الناس ويتعامل مع أخلاقهم، وإلا فكيف تبرز الفضيلة إلا من خلال خوض معتك الحياة.

ولذلك فقد قال النبي ﷺ : « إن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم». صحيح ابن ماجة

ولقد خلق الله الإنسان اجتماعي بطبعه يحتاج إلى الناس ويحتاجون إليه، ولم يطلب منهم أن يناقضوا طبيعتهم، ولكن وضع لنا المعايير التي يجب أن نتعامل بها مع بعضنا البعض.

(إن الإنسان من بين جميع الحيوان، لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته، ولا بد له من معاونة قوم كثيري العدد حتى يتم به حياته طيبة، ويجري أمره على السداد، ولهذا قال الحكماء: إن «الإنسان مدني بالطبع» أي هو محتاج إلى «مدينة» فيها خلق كثير لتتم له السعادة الإنسانية، فكل إنسان بالطبع وبالضرورة يحتاج إلى غيره، فهو كذلك مضطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحبة الصادقة، لأنهم يكملون ذاته ويتممون إنسانيته، وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك. فإذا كان كذلك بالضرورة فكيف يؤثر الإنسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلي؟ .

فالقوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم إما بملازمة المغارات في الجبال، وإما ببناء الصوامع في

المفاوز، لا يحصل شيء من الفضائل الإنسانية، وذلك أن من لم يخالط الناس ولم يساكنهم، لا تظهر فيه العفة، ولا العدالة، بل تصير قواه وملكاته التي ركبت فيه باطلة، لأنها لا تتوجه لا إلى الخير ولا إلى الشر. فإذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بمنزلة الجمادات والموتى من الناس.

لذلك يظنون ويظن بهم أنهم أعفاء وليسوا بأعفاء، وأنهم عدول وليسوا بعدول، وكذلك في سائر الفضائل . والفضائل .. هي أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب المجتمعات. ونحن نعلم ونتعلم الفضائل الإنسانية التي نساكن بها الناس ونخالطهم ونصبر على أذاهم، لنصل منها وبها إلى حال أخرى).

مسكويه